الحضارات المعمارية في الأمم السابقة: مملكة سبأ أنموذجاً -دراسة تفسيرية-

Architectural Civilizations of Previous Nations: The Kingdom of Sheba as a Case Study – A Qur'anic Exegetical Study

نور عز الدين محي

Noor Izz Al-Din Mohi

جامعة سامراء / كلية العلوم الإسلامية / قسم العقيدة والفكر الإسلامي

Samarra University / College of Islamic Sciences / Department of Islamic Belief and Thought

E-mail: nooeezzaldeen@gmail.com

07714614416

أ.د. تاج الدين أمجد عبد المنعم

Prof. Dr. Taj Al-Deen Amjad Abdul Munem

جامعة سامراء / كلية العلوم الإسلامية / قسم العقيدة والفكر الإسلامي

Samarra University / College of Islamic Sciences / Department of Islamic Belief and Thought

الكلمات المفتاحية: سبأ، البنية العمرانية، التفسير، حضارة عربية، مأرب.

Keywords: Saba, Urban Structure, Exegesis, Arab Civilization, Marib.

الملخص

يُبرز القرآن الكريم نماذج من الحضارات السابقة لا على سبيل السرد التاريخي المجرد، بل بوصفها شواهد حضارية تحمل دلالات عقدية ونفسية واجتماعية عميقة. ويأتي ذكر مدينة سبأ في هذا السياق نموذجًا لحضارة عمرانية متقدمة، قامت على حسن استثمار الموارد، وتنظيم العمران، وتحقيق التوازن بين الإنسان والبيئة. وقد صوّر القرآن الكريم ملامح بيئة عمرانية مستقرة في سبأ، اتسمت بالأمن والرخاء والترابط الاجتماعي، مما يعكس انسجام البناء المادي مع القيم الإيمانية، غير أن هذا الاستقرار لم يدم، إذ أعقبه انهيار حضاري نتيجة الانحراف العقدي والسلوكي، وفق السنن الإلهية الحاكمة لعمران الأرض .وتتبع أهمية دراسة مدينة سبأ دراسة تفسيرية من كونها تكشف العلاقة الوثيقة بين القيم الإيمانية واستمرار الازدهار العمراني، وتُبرز البعد الحضاري للخطاب القرآني في بيان نشوء الحضارات وبقائها أو زوالها.

Abstract

The Qur’an presents earlier civilizations not as mere historical accounts, but as paradigmatic models with doctrinal, psychological, and social significance. Within this perspective, the City of Sheba is portrayed as an advanced architectural civilization characterized by effective resource management, organized urban structure, and a balanced relationship between humans and their environment. Qur’anic verses depict Sheba as enjoying stability, security, prosperity, and social cohesion, reflecting harmony between material development and faith-based moral values. However, this equilibrium did not endure, as civilizational decline ensued due to doctrinal deviation and moral transgression, in accordance with divine laws governing societal rise and fall. Thus, a tafsīr-based study of Sheba highlights the close relationship between moral-religious values and the sustainability of urban civilizations.

المقدمة:

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ الكتابَ هدىً ورحمةً، وكرَّمَ الإنسانَ وجعله مستخلفًا في الأرض للإصلاح، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

وبعد:

فتُعدّ دراسة التفسير القرآني من أبرز الوسائل لفهم الآيات القرآنية، لا من حيث المعنى اللغوي فقط، بل أيضًا من حيث الدلالات النفسية والاجتماعية والحضارية التي تنطوي عليها. فالتفسير يمكّن الباحث من قراءة القرآن بوصفه مرشدًا شاملاً للإنسانية، يكشف الحكمة الإلهية في تشريعاته وقصصه، ويبين العلاقة بين السلوك الإنساني والنتائج المترتبة عليه في المجتمع والحضارة.

وتحظى دراسة الحضارات السابقة في ضوء التفسير بأهمية خاصة، إذ لا يقتصر القرآن في ذكر الأمم الماضية على السرد التاريخي، بل يعرضها كنماذج للعبرة والاعتبار، بحيث يُظهر كيف يثمر الالتزام بالقيم الإيمانية والخلق الحسن استمرار الحضارة وازدهارها، وكيف يؤدي الانحراف عنها إلى الزوال والفناء. ومن هذا المنظور، يصبح فهم أسباب صعود وهبوط الحضارات أداة لفهم التوازن بين الإنسان وبيئته العمرانية والاجتماعية.

واختيار حضارة سبأ نموذجًا للدراسة يأتي لأهمية المدينة من الناحية العمرانية والسياسية والاجتماعية، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم لتكون مثالًا على مجتمع مزدهر يجمع بين الثراء المادي والتنظيم الحضاري، وفي الوقت نفسه، يُبرز أثر الغفلة عن شكر النعم واتباع الانحراف الأخلاقي على انهيار الحضارة. فالتركيز على سبأ يمكّن الباحث من دراسة عناصر البنية العمرانية، والنظام الإداري، والقيادة الرشيدة، والعلاقة بين الإنسان والطبيعة، من خلال منظور قرآني شامل يجمع بين الدروس الدينية والتحليل الحضاري.

أهمية الموضوع، وسبب اختياره:

تبرز أهمية هذه الدراسة لعدة أسباب منها:

1. فهم العلاقة بين الإيمان والعمران :إذ تُظهر قصة سبأ كيف يؤثر التمسك بالقيم الإيمانية أو الغفلة عنها على ازدهار الحضارات أو انهيارها.
2. تحليل حضارة متكاملة: إنّ سبأ تمثل نموذجًا حضاريًا شاملاً يجمع بين البنية العمرانية، النظام الاجتماعي، الاقتصاد، والزراعة، مما يساعد على دراسة تنظيم المجتمعات القديمة.
3. إبراز الدلالات النفسية والاجتماعية: إنّ دراسة المدينة تكشف أثر البيئة العمرانية على سلوك الأفراد والمجتمع، والتفاعل بين الإنسان والطبيعة والموارد.

4.استخلاص العبر والتوجيهات القرآنية: إنّ قصص القرآن مثل سبأ لا تهدف للتوثيق التاريخي فقط، بل لتعليم الدروس العملية والأخلاقية المتعلقة بالشكر، المسؤولية، والإدارة الحضارية.

5.الإسهام في الدراسات العمرانية والتاريخية : إنّ توثيق وتحليل المعالم العمرانية مثل سد مأرب ومعبد برّان يساعد على فهم المستوى التقني والهندسي للمملكة السبئية.

6.تسليط الضوء على القيادة الرشيدة والشورى :في ضوء دراسة نظام الحكم عند بلقيس، يمكن استخلاص نماذج سياسية واجتماعية تستند إلى العقل والحكمة والمشاركة الجماعية.

7.جسر بين الدراسات الدينية والأثرية :إذ البحث يجمع بين التفسير القرآني والتحليل المعماري والتاريخي، ما يعزز الدراسة متعددة التخصصات ويُثري الفهم الشامل للحضارات القديمة.

وجاء اختيار هذا الموضوع لما يتيحه من فرصة لفهم أبعاد القرآن الكريم الحضارية، وإظهار كيف يعالج النص القرآني مفاهيم العمران والنظام الاجتماعي والتوازن بين الإنسان وبيئته الطبيعية في سياق قصص الأنبياء والأمم السابقة. كما يتيح البحث تحليل كيفية تفاعل المجتمع مع النعم الإلهية، وأثر الغفلة والكفر على استقرار المجتمعات العمرانية.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى:

1. تحليل البنية العمرانية لمدينة سبأ كما جاءت في القرآن الكريم.
2. استكشاف الدلالات النفسية والاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بهذا العمران.
3. إبراز العلاقة بين القيم الإيمانية واستمرار الرخاء الحضاري.

إشكالية البحث وفرضياته:

وتتمثل إشكالية البحث في السؤال التالي: كيف يبرز القرآن الكريم نموذج مدينة سبأ كحضارة عمرانية متكاملة، وما العلاقة بين الإيمان والاستقرار العمراني، والغفلة والانهيار؟

ومن فرضيات البحث:

- وجود ارتباط مباشر بين القيم الإيمانية وازدهار العمران.
- أن الانحراف السلوكي والعقدي يؤدي إلى انهيار الحضارات.
- أن النص القرآني يعرض الأمثلة الحضارية ليس للتوثيق التاريخي، بل للعبرة والتدبر.

منهجية البحث:

طبيعة المادة العلمية للبحث اقتضت اتباع المنهج التفسيري التحليلي، مستندًا إلى تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بسبأ، مع الرجوع إلى أقوال المفسرين، واستخدام المنهج الاستقرائي في دراسة البنى العمرانية والآثار المادية المرتبطة بالمملكة السبئية.

الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع والبحث، لم تقف الباحثة على دراسة سابقة تناولت موضوع مدينة سبأ من الجانب العمراني والنفسي والاجتماعي وفق المنظور القرآني بنفس الطريقة التي تناولها هذا البحث، وإن كانت هناك دراسات تناولت جوانب مرتبطة بها، ومن أبرزها:

1. "الحضارة السبئية في سورة سبأ" رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة تلمسان ، والتي قدمت دراسة تحليلية للحضارة السبئية في القرآن الكريم، مع التركيز على الجوانب التاريخية والاجتماعية للحضارة، ما يجعلها دراسة مرجعية مهمة لفهم سياق سبأ القرآني.

2. الهدايات القرآنية في قصة سبأ – دراسة موضوعية، المنشورة في مجلة الأزهر (فرع الزقازيق)، حيث تناولت الهدايات العقدية والسلوكية المستفادة من قصة سبأ في القرآن الكريم، دون التطرق إلى تحليل البيئة العمرانية أو أبعادها النفسية والاجتماعية، وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى معالجته.

تمهيد:

تُعدّ مدينة سبأ من المدن العربية القديمة التي ارتبط اسمها بحضارة مزدهرة سادت في جنوب جزيرة العرب، وتحديدًا في منطقة اليمن الحالية (الحموي، 1995م، 181/3).

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في سياق الحديث عن النعم التي أنعم الله بها على قوم سبأ، وكيف أن كفرهم بتلك النعم أدى إلى زوال حضارتهم، مما يجعل قصتهم مثالًا بليغًا على العلاقة بين العمران والإيمان (ابن كثير، 1420هـ، 504/6).

قال تعالى في سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ:15)

في هذه الآية تتجلّى صورة حضارية متكاملة لمدينة سبأ، حيث البيئة الخصبة، والازدهار الاقتصادي، والسكن الآمن، وكلها دلائل على عمران مبارك أراده الله لعباده، لكن حين غاب الشكر وحل الجحود، تبدّلت الحال، وانقلبت النعمة إلى نقمة.

ومن هنا، فإن دراسة مدينة سبأ ليست مجرد استعراض لتاريخ قديم، بل هي تأمل في السنن الإلهية التي تربط بين الإيمان والعمران، وبين الشكر ودوام النعمة، كما هو أسلوب القرآن الذي يذكر القصص لا لمجرد السرد التاريخي، بل للعبرة والاعتبار، بخلاف ما نجده في كثير من روايات الكتب الدينية الأخرى التي تورد القصص لأغراض توثيقية أو سردية بحتة (صلاح الخالدي، 1419هـ،41/1).

وانطلاقًا من هذه الرؤية، تسعى هذه الدراسة التفسيرية إلى استكشاف البنية العمرانية لمدينة سبأ كما عكستها الآية، وتحليل دلالاتها النفسية والاجتماعية، استنادًا إلى المنهج الموضوعي في التفسير، الذي يربط بين النص القرآني وقضايا الإنسان والمجتمع والعمران عبر العصور.

وقبل الخوض في تحليل البنية العمرانية لمدينة سبأ، يجدر التمهيد بتحديد مفهوم (سبأ) من الناحية اللغوية والاصطلاحية؛ لأن هذا سيساعدنا على فهم الآية بشكل أعمق، ومعرفة ما تعنيه من دلالات حضارية ونفسية واجتماعية.

المبحث الأول: سبأ بين اللغة والاصطلاح:

المطلب الأول:سبأ لغةً:

ذكر ابن فارس أن لفظ (سبأ) قد يحمل أكثر من معنى قال (فَالْأَوَّلُ سَبَأْتُ الْجِلْدَ، إِذَا مَحَشْتَهُ حَتَّى أُحْرِقَ شَيْئًا مِنْ أَعَالِيهِ. وَالثَّانِي سَبَأْتُ جِلْدَهُ: سَلَخْتُهُ. وَالثَّالِثُ سَبَأَ فُلَانٌ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ، إِذَا مَرَّ عَلَيْهَا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ. وَمِمَّا يُشْتَقُّ مِنْ هَذَا قَوْلُهُمْ: انْسَبَأَ اللَّبَنُ، إِذَا خَرَجَ مِنَ الضَّرْعِ. وَالْمَسْبَأُ: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ، وَالْمَعْنَى الرَّابِعُ قَوْلُهُمْ: ذَهَبُوا أَيَادِي سَبَأَ، أَيْ مُتَفَرِّقِينَ. وَهَذَا مِنْ تَفَرُّقِ أَهْلِ الْيَمَنِ. وَسَبَأُ: رَجُلٌ يَجْمَعُ عَامَّةَ قَبَائِلِ الْيَمَنِ، وَيُسَمَّى أَيْضًا بَلَدُهُمْ بِهَذَا الِاسْمِ) (ابن فارس، 1399هـ،131/3).

وفي الصحاح :(سبأت الخمر سبأ ومسبأ، إذا اشتريتَها لتشربها...، والاسم: السِباء، على فعال بكسر الفاء، ومنه سميت الخمر سبيئة. قال حسان بن ثابت: كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء ويسمون الخمار: السَّبَّاء. فأمَّا إذا اشتريتها لتحملها إلى بلدٍ آخر قلت: سَبَيْتُ الخمر بلا همز. وسبأ: اسم رجل، ولد عامة قبائل اليمن. وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، يصرف ولا يصرف، وسبأ فلان على يمين كاذبة، إذا مرَّ عليها غير مكترت، وسبأت الرجل، جلدته. أبو زيد: سبأته بالنار أحرقْتُهُ. وانْسَبَأَ الجلدُ: انسلخ. قال: والمسبأ: الطريق في الجبل. والسبئية من الغلاة، ينسبون إلى عبد الله ابن سبإ) (الجوهري، 1990م، 55/1).

وفي اللسان ذكر المعاني التي ذكرها الصحاح، ثم قال:(قَالَ الزَّجَّاجُ: سَبَأٌ هِيَ مَدِينَةٌ تُعرَف بمَأرِب مِن صَنْعاءَ عَلَى مَسِيرةِ ثلاثِ ليالٍ، وَمَنْ لَمْ يَصْرِفْ فلأَنه اسْمُ مَدِينَةٍ، وَمَنْ صَرَفَهُ فلأَنه اسْمُ الْبَلَدِ، فَيَكُونُ مُذَكَّرًا سُمِّيَ بِهِ مُذَكَّرٌ. وَفِي الْحَدِيثِ ذَكَرَ سَبَأَ قَالَ: هُوَ اسْمُ مَدِينَةِ بِلْقِيسَ بِالْيَمَنِ) (ابن منظور، 1414هـ، 94/1).

وهناك تعبير شائع في كلام العرب وهو (تفرّقوا أيدي سبأ) أو (أيادي سبأ)، وهو مثلٌ يُضرَب في شدة التفرّق والانقسام، وهو مأخوذ من تفرّق قبائل سبأ بعد انهيار حضارتهم نتيجة سيل العرم(النيسابوري، 1374هـ، 257/1) ، وقد شاع هذا المثل في الشعر العربي، كما في قول كثير عزة:

أيادي سبأ، يا عزّ، ما كنتُ بعدكم ... فلم يَحلُ للعَينَينِ، بعدكِ، منظرُ (كثير عزة، 1413هـ، 100)، ويُستخدم مجازيًا في الأدب للدلالة على الشتات، سواء في القلوب أو الأحوال أو الناس (النيسابوري، 1374هـ، 257/1).

جاء في اللسان:(وضَرَبَتِ العَرَبُ بِهِم المَثَلَ فِي الفُرْقة لأَنه لمَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَنَّتَهم وغَرَّقَ مكانَهُم تَبَدَّدُوا فِي الْبِلَادِ... وَقَوْلُهُمْ ذَهَبُوا أَيْدِي سَبَا أَي مُتَفَرِّقين، شُبِّهُوا بأَهلِ سبَأ لمَّا مزَّقهم اللَّهُ فِي الأَرض كلَّ مُمَزَّقٍ، فأَخذ كلُّ طائفةٍ مِنْهُمْ طَرِيقًا عَلَى حِدةٍ. واليَدُ: الطَّرِيق، يُقَالُ: أَخَذَ القَومُ

يَدَ بَحْرٍ. فَقِيلَ لِلْقَوْمِ، إِذَا تَفَرَّقوا فِي جهاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: ذَهَبوا أَيدي سَبَا أَي فَرَّقَتْهم طُرُقُهم الَّتِي سَلَكُوها كَمَا تَفَرَّقَ أَهل سَبَأٍ فِي مذاهبَ شَتَّى. وَالْعَرَبُ لَا تَهْمِزُ سَبَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لأَنه كثر في كَلَامِهِمْ، فاسْتَثْقَلوا فِيهِ الْهَمْزَةَ، وَإِنْ كَانَ أَصله مَهْمُوزًا. وَقِيلَ: سَبَأٌ اسْمُ رَجُلٍ ولَدَ عَشَرَةَ بَنِينَ، فَسُمِّيَتِ القَرْية بِاسْمِ أَبِيهم. والسَّبائِيَّةُ والسَّبَئِيَّةُ مِنَ الغُلاةِ ويُنْسَبُون إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَإٍ) (ابن منظور، 1414هـ، 94/1).

وبناءً على ما سبق، يتّضح أن لفظ (سبأ) في اللغة العربية ليس مجرد علم على مكان، بل يحمل جذورًا لغويةً غنيّة ومتعددة الدلالات، منها ما يدل على الحرق والخدش والسَّلخ، ومنها ما يعبّر عن المرور غير المبالي، أو عن الطريق الجبلي، وكلها معانٍ توحي بالحركة أو التبدل أو التشتت.

المطلب الثاني: سبأ اصطلاحًا:

سبأ في الاصطلاح تطلق على أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيّام، فمن لم يصرف؛ فلأنّه اسم مدينة، ومن صرفه؛ فلأنّه اسم البلد فيكون مذكّرا سمّى به مذكرا، وسُميت هذه الأرض بهذا الاسم؛ لأنّها كانت منازل ولد سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (الحموي، 1995م، 181/3).

ويُشار إليها في النصوص الإسلامية والتاريخية بوصفها أمة أو مدينة متكاملة البنيان، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم باعتبارها مثالًا لحضارة بلغ بها الرخاء مبلغًا عظيمًا، ثم انهارت بسبب كفر النعمة (ابن كثير، 1420هـ، 257/1).

المبحث الثاني: الآثار المعمارية في مملكة سبأ

المطلب الأول: سد مأرب:

يُعد سد مأرب من أبرز الشواهد العمرانية في مملكة سبأ، بل يُصنَّف ضمن أهم السدود التي خلدها التاريخ القديم في الجزيرة العربية (محمد سهيل طقوش، 1430هـ، 40).

بدأ السبئيون في بنائه في القرن الثامن قبل الميلاد، ثم خضع لترميم وتطوير لاحق في عهد الملك شمر يهرعش في القرن السادس الميلادي، حتى اتخذ شكله النهائي بوصفه عمودًا فقريًا لنظام الري الاصطناعي وتنظيم الزراعة الكثيفة في البيئة الصحراوية الجنوبية (محمد سهيل طقوش، 1430هـ، 40).

أما عن طريقة بناء هذا السد، فإنها تكشف عن مستوى عالي من الفهم الهندسي والدقة المعمارية التي بلغها أهل سبأ، فقد أُنشئ عند مضيق طبيعي بين جبلين يعرفان بـ(بلق القبلي) و(بلق الأوسط)، حيث أقيم البناء لاحتجاز مياه السيول التي تنحدر من أودية متعددة، لتُجمَع في حوض واسع تديره منظومة هندسية محكمة من الأبواب والقنوات.

واستعمل البنّاؤون في تشييده حجارة صلبة اقتُطعت من الصخور ونُحتت لتتداخل كأنها مفاتيح في أقفال، مما منح الجدران تماسكًا فائقًا.

كما دعّمت تلك الحجارة بقضبان معدنية مصبوبة من النحاس والرصاص على هيئة مسامير، تدخل من حجر إلى آخر لتربطهما بإحكام، واعتمد البناؤون في التثبيت على نوع من الجبس عالي الجودة يشبه السمنت الحديث، طليت به الواجهات فعزز من صلابتها ومقاومتها للعوامل.

و صُمّمت أبواب تُفتح وتُغلق يدويًا لتصريف المياه في قنوات وسواقي تصل إلى الأراضي الزراعية، ما يعكس تقدمًا في فنون الري.

وتشير الآثار الباقية إلى أن السد تعرض لصيانات متكررة وتحسينات على مرّ قرون من قِبَل ملوك سبأ، وكان آخرها في منتصف القرن السادس الميلادي (جواد علي، 1422هـ، 209/13-213).

وقد بناه السبئيون لهدفين:

الأول: حماية الزروع من السيول الجارفة التي تهبط من الجبال فتدمر المحاصيل.

الثاني: تخزين المياه وتوزيعها وتنظيمها حسب الحاجة لما يجاور مساكنهم من الحقول والأراضي الخصبة المزروعة(محمد سهيل طقوش، 1430هـ، 41).

وأشار القرآن الكريم بشكل واضح إلى أثر هذا السدّ، فقال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾ (سبأ:15) أي إن أراضيهم كانت ممتدة إلى اليمين والشمال، وكانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار، تستتر الناس بظلالها، ولم يروا فيها بعوضة قط ولا ذبابًا ولا برغوثًا ولا قملةً ولا عقربًا ولا حيةً ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب، وكانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مكتل فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها (القرطبي،1384هـ،284/14)، وبيَّن بعدها أن هذه النعمة زالت عنهم بقوله:﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ (سبأ:16) فسلبهم الله هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه وأرسل عليهم السيل الجارف الذي يحمل العرم ، في طريقه لشدّة تدفّقه، فتحطّم السد و انساحت المياه، فغرقت واندفعت، ثم بعد الماء الجارف بعد ذلك، هجمت الجرذان، وتمرّكت الجنّتان، وانتهت ابتسامة الأرض المزدهرة والمتنعّمة، وصارت الجنتان ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾(سبأ:16) ، وهذا أجود ما صار لهم، ولم يعولهم منه إلا قليل (القرطبي،1384هـ،285/14).

المطلب الثاني: معبد برّان (عرش بلقيس):

يُعدّ معبد (برآن)، المعروف أيضًا بـ(عرش بلقيس)، أحد أبرز المعالم المعمارية والدينية في مملكة سبأ، وقد اشتهر كمركز للعبادة وموقع احتفالي ذا قداسة خاصة لدى السبئيين، ويقع هذا المعبد خارج مدينة مأرب القديمة، إلى الجهة الجنوبية الغربية، ويبعد عنها قرابة أربعة كيلومترات (مجلة الخليج للتاريخ والآثار، 2020م، 63).

انماز معبد برآن، المكرّس لعبادة الإله السبئي بمعمار دقيق، إذ ضم أعمدة حجرية ضخمة، وعددًا من الغرف والمنشآت، منها ما يرجح أنه كان يستخدم لأغراض اقتصادية أو إدارية أو تخزينية، وقد بُني باستخدام حجارة البازلت الضخمة المتراصة على هيئة مداميك دقيقة، تعكس براعة المعماريين في قطع الحجارة وصقلها دون ملاط، وتشير النقوش المسندية المكتشفة على جدران المعبد إلى ممارسات دينية متعددة، بعضها يحمل صبغة تقديسية، وبعضها يعكس الحياة اليومية أو العلاقات الاقتصادية (منير عبد الجليل العريقي، 2002م، 137).

وقد وُصف هذا الموقع في كتب التفسير عند الحديث عن قصة بلقيس وعرشها الذي نُقل إلى سليمان عليه السلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ (النمل:38)، وقيل بأن المقصود بالعرش هو سرير الحكم، و بعض الروايات نسبت ذلك إلى عرش مبني مزخرف يعكس ثراء سبأ وفنونها المعمارية (الطبري، (د.ت)، 462/19).

المبحث الثالث: استعمالها في السياق القرآني

وردت قصة سبأ في القرآن الكريم لتُظهر كيف يمكن أن تتحول أمة مزدهرة إلى أمة مدمَّرة حين تغفل عن شكر الله وتخالف أوامره؛ فالقرآن لا يذكر القصص لمجرد السرد التاريخي، وإنما يُوردها للعبرة والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (يوسف:111).

وفي هذه القصة القصيرة، نجد تصويرًا بليغًا لانتقال أهل سبأ من النعمة والرخاء إلى الشتات والضياع، وهو ما يُبيّن أثر الانحراف السلوكي في هدم البيئة العمرانية (صلاح الخالدي، 1419هـ، 41/1)

المطلب الأول:الإطار الموضوعي لذكر سبأ في القرآن الكريم:

ورد ذكر قصة سبأ في القرآن في سورتين:

الأولى: سورة النمل:

قال تعالى:﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ

ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۡۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل:22-44).

عرضت الآيات الكريمة قصة بلقيس ملكة سبأ، بما تحمله من تفاصيل سياسية وعمرانية بارزة، فقد مثّل ذكر بلقيس نموذجًا لحكمٍ مستقر تقوده امرأةٌ ذات عقل ورشد، تتعامل مع الموقف بحكمة ومشورة، ويملك قومها تنظيمًا سياسيًا واضحًا، وعرشًا وصفه الله بأنه عظيم، مما يدل على تقدم عمراني ومادي، ويُفهم من هذا السياق أن القرآن أراد أن يُبرز عبر القصة ليس فقط الحدث التاريخي، بل المعاني المتصلة بكيفية تفاعل المجتمعات مع الرسالة الإلهية، وارتباط الحضارة بالإيمان أو الغفلة (صلاح الخالدي، 1419هـ، 3/530-544).

-أقوال المفسرين:

لعل الوقوف على دراسة الآيات من سورة النمل واستعراض وصف مملكة سبأ كما ورد في أقوال المفسرين دون التوسّع في تفاصيل بقية مشاهد القصة، مع التركيز على العرش، والنظام السياسي، والشورى، وما ارتبط بذلك من أبعاد رمزية ودلالات حضارية يقدم قراءة دقيقة للباحث والقارئ ونجملها في الآتي:

أ-أقوال القدامى:

أشار الطبري في تفسيره إلى أن بلقيس كانت تملك قومها، ثم أورد روايات عن مشورة قومها معها في أمر سليمان–عليه السلام–، مما يعكس وجود شكل من أشكال الشورى أو المشاركة في القرار، فجاء في القرآن على لسان الهدهد عن حال قوم سبأ:(﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ يعني تملك سبأ.. وقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يقول: وأوتيت من كلّ شيء يؤتاه الملك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة.. ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ يقول: ولها كرسي عظيم، وعني بالعظيم في هذا الموضع: العظيم في قدره، وعظم خطره، لا عظمه في الكبر والسعة.. ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول: وجدت هذه المرأة ملكة سبأ، وقومها من سبأ، يسجدون للشمس فيعبدونها من دون الله، وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يقول: وحسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله) (الطبري، (د.ت)، 446/19–447) ، ثم ذكر مشاورتها لقومها في أمر الكتاب الذي بعثه سليمان –عليه السلام– وهو ما يبين طبيعة نظام الحكم في سبأ القائم على الشورى فقال :(يقول تعالى ذكره: قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ تقول: أشيروا عليّ في أمري الذي قد حضرني من أمر صاحب هذا الكتاب الذي ألقي إليّ، فجعلت المشورة فتيا..وقوله: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ تقول: ما كنت قاضية أمرا في ذلك حتى تشهدون، فأشاوركم فيه..) (الطبري، (د.ت)، 453/19).

أما القرطبي، فقد لفت الانتباه إلى لفظ ﴿عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ عادًا له رمز للسلطان والهيبة، وأن الزينة التي وُصف بها العرش تعكس ترفًا حضاريًا وزينة مادية راقية (القرطبي، 1384هـ،184/13) وذكر أقوالًا في وصف عرشها منها:

- قول ابن عباس: كان طول عرشها ثمانين ذراعا، وعرضه أربعين ذراعا، وارتفاعه في السماء ثلاثين ذراعا، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر.
- قول قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مسترا بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق.
- قول مقاتل: كان ثمانين ذراعا في ثمانين ذراعا وارتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجواهر (القرطبي، 1384هـ،184/13).

ب–المعاصرون:

يرى ابن عاشور أن وصف القصة يحمل أبعادًا عقلية وحضارية، فمكان العبرة فيها هو الاتعاظ بحال هذه الملكة، إذ لم يصدها علو شأنها وعظمة سلطانها، مع ما أوتيته من سلامة

الفطرة وذكاء العقل، عن أن تنظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد وتوقن بفساد الشرك وتعترف بالوحدانية لله.

ومن هنا يُبيّن ابن عاشور أن ما يكون من إصرار المشركين بعد ذلك على الشرك، إنما هو لسخافة أحلامهم أو لعماهم عن الحق (الطاهر بن عاشور، 1984م، 277/19).

كما ركّز الطنطاوي على وصف مملكة سبأ بأنها كانت مملكة قائمة على القوة والنظام والشورى، حيث امتلكت بلقيس عرشًا وصفه الله بالعظيم، وكان قومها منظمين، قادرين على التعبئة والحرب، كما في قولهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (النمل:33)، لكنها – مع ما كانت فيه من ترف عمراني ومكانة سياسية – لم تتكبر حين جاءتها دعوة الحق، بل استشارت قومها، ثم استجابت لما رأته برهانًا بيّنًا، مما يدل على أن مملكتها كانت تقوم على العقل والحكمة، لا مجرد السلطان والغرور (محمد سيد طنطاوي، (د.ت)، 334/10).

وبعد استعراض أقوال المفسرين وانطلاقًا منها يمكن استعراض أبرز المعاني والدلالات عن قوم سبأ على النحو الآتي:

1-تنظيم إداري متقدّم: في قوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فسّر الطبري أن بلقيس كانت تمتلك أدوات السلطة والملك من العتاد والتجهيز، مما يدل على توافر مقومات الدولة المتكاملة .

2-نظام شورى فعّال:إنّ مشاورتها لأشراف قومها بقولها ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ كما أورد الطبري، يؤكد على وجود نظام سياسي قائم على الشورى، ويُظهر أن الحُكم في سبأ لم يكن قسريًا منفردًا، بل قائم على المشاركة وصنع القرار الجماعي.

3-قوة مادية وعمرانية ظاهرة:وصف العرش بـ(العظيم) في تفسير القرطبي وما نُقِل من أقوال العلماء يعكس ترفًا حضاريًا ومهارة معمارية راقية، إذ صُنع من الذهب والجواهر، وكان مؤمّنًا بالمغاليق، ما يشير إلى قوة اقتصادية وتنظيم عمراني فخم.

4-بنية عسكرية منظّمة: أشار الطنطاوي إلى قول قومها ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (النمل:33) يدل على بنية عسكرية مهيكلة وجاهزة، ومع ذلك فضّل القوم العودة إلى رأي ملكتهم، ما يعكس وعيًا سياسيًا متزنًا.

5-حكمة عقلية وإنصاف عقدي: يرى ابن عاشور أن بلقيس لم تستكبر بسلطانها، بل نظرت في دعوة التوحيد بعين العقل، مما جعلها تُسلم ببرهان واضح، وهو ما يدل على قابلية فكرية ونضج روحي في بيئة كانت مشركة، لكنها غير معاندة.

الثانية: سورة سبأ:

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبّٞ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ (سبأ:15-19).

جاء عرض قصة سبأ في سورة سبأ عرضًا فنيًا بالغ الإيجاز والعمق، يتدرج من وصف النعمة إلى رصد الانحراف، ثم إلى العقوبة، وأخيرًا إلى التفكك والشتات، وهي قصة لا تُساق لمجرد التأريخ، بل لبناء وعي حضاري واجتماعي، يرصد أثر السلوك الجمعي في مصير الأمم (الشهراني، 1419هـ، 6-9).

-أقوال المفسرين:

أ-القدامى:

فسّر الطبري قوله تعالى ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ (سبأ:16) بأن الله أرسل عليهم هذا السيل عقوبة على إعراضهم عن رسله-عليهم السلام-، فجعل أسبابه خفية؛ منها ثقب أصاب سدهم الذي كان يحبس السيول عنهم، فانهار السد، وغمرت السيول جنتيهم ومساكنهم، وأتلفت الزروع والمرافق، فكانت النتيجة عقوبة إلهية مسلطة بوسائل ظاهرها طبيعي، وباطنها مقدّر (الطبري، (د.ت)، 378/20-380).

أما القرطبي فقد تناول قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ ﴾ (سبأ:18)، بيّن الطبري أن المراد بالقرى التي بورك فيها هي: بلاد الشام وما جاورها من الأردن وفلسطين، وأن البركة شملت خصب الأرض، وكثرة القرى، ووفرة الماء والثمار، ثم ذكر القرطبي أقوال لقوله تعالى ﴿ قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾:

- قول ابن عباس: قرى ظاهرة متتابعة بين المدينة والشام، تُرى بعضها من بعض، فهي ظاهرة بمعنى معروفة واضحة.
- قول قتادة: معنى" ظاهرة": أي قرى متصلة على طريق السفر، يقيل المسافر في قرية، ويبيت في أخرى، وكانوا يسيرون آمنين لا خوف ولا جوع ولا ظمأ.
- قول المبرد:" ظاهرة" أي مرتفعة.
- وقيل: إنما قيل لها" ظاهرة" لظهورها، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى، فكانت قرى ظاهرة أي معروفة، يقال: هذا أمر ظاهر أي معروف (القرطبي، 1384هـ،289/14).

ب-المعاصرون:

وبعد أن أنعم الله عليهم بأعظم النعم من عمرانٍ مزدهر، وقرى متقاربة، وأسفار ميسّرة، أعرضوا عن المنعم وبطروا النعمة.

فقد ذكر السعدي أنهم ملّوا النعمة حتى تمنّوا زوالها وطلبوا أن تتباعد أسفارهم رغم كونها قريبة مريحة، فجاء طلبهم قمة الجحود والبطر(السعدي، 1420هـ، 677).

جاء في تفسير ابن عاشور لقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ:19) تحليل دقيق يبرز البعد الحضاري والاجتماعي لهذه الآية، فبيّن كيف ارتبط بطر النعمة وكفرها بزوالها، وكيف قاد فساد الذوق وانحراف التفكير إلى استجلاب العقوبة.

كما أشار إلى مراحل التبدل التي مرت بها أمتهم، من تمام النعمة إلى تمني زوالها، ثم إلى خراب العمران وتشتيت الجماعة، فصارت عبرة للأمم من بعدها.

وفيما يلي أهم المعاني والدلالات التي استنبطها ابن عاشور من هذا الموضع:

1-البطر وكفران النعمة: قولهم رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا كان مظهرًا من مظاهر بطر النعمة والاستخفاف بها، فطلبوا زوال تقارب قراهم وتيسير أسفارهم، فاستحقوا سلب ما أُعطوا من ترف العمران وسهولة التنقل.

2-الردّ على مواعظ الأنبياء باستهزاء: يرى ابن عاشور أن هذا القول جاء ردًّا استهزائيًا على مواعظ أنبيائهم وصالحيهم، كما ردّ كفار قريش على النبي ﷺ بقولهم ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ﴾ (الأنفال: 32)، مما يُظهر العناد وفساد الذوق.

3-ظلم النفس بالشرك أعظم كفران: جملة ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾(سبأ:19) تدل على الشرك الذي أطلق عليه ظلم النفس في مواضع كثيرة من القرآن، وهو أعظم صور كفران النعمة لأنه يجمع بين إنكار الخالق والإعراض عن الطاعة(ابن عاشور، 1984م، 22/176-177).

4-العقوبة مركبة: بيّن أن العقوبة كانت على مستويين:

- **الإعراض والشرك:** فاستؤصلوا وصاروا أحاديث بعد هلاكهم.
- **كفران النعمة:** فشُتّتوا في البلاد ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ: 19) بعد خراب سد مأرب(ابن عاشور، 1984م، 22/178).

5-مزقناهم كل ممزق بمعنى التشتيت والهجرة القسرية: فُسّر التمزيق بتفريق وحدة القوم حتى تفرّقوا شذر مذر، وصار تفرّقهم مثلًا عند العرب تفرّقوا أيدي سبأ، وهو عقاب اجتماعي وسياسي بعد العقاب العمراني (ابن عاشور، 1984م، 177/22).

وبعد استعراض هذه التفاسير توضح بجلاء كيف تجسدت المراحل الخمس لقصة سبأ في سورة سبأ وهي:

المرحلة الأولى : مرحلة النعمة: افتُتحت القصة بقوله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾(سبأ:15) في إشارة إلى استقرارهم في بيئة مزدهرة زراعيًا وعمرانيًا، حيث قال: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾(سبأ:15) وهي صورة لمجتمع متوازن الموارد، قائم على هندسة مائية راقية (سد مأرب) وسكن مريح آمن.

المرحلة الثانية : مرحلة الغفلة: قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ (سبأ:16) وهي مرحلة الانحراف الجمعي، حيث أعرض القوم عن شكر النعمة، واكتفوا بالاستهلاك المادي دون وعي بقيم الشكر والتوحيد، فكان ذلك بداية الانحدار.

المرحلة الثالثة : مرحلة العقوبة: قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ (سبأ:16) ويمثل هذا السيل انهيار البنية التحتية للدولة، بما تحمله من السدود والجنات، في مشهد يعكس زوال الاستقرار البيئي كمظهر مباشر للعقوبة الإلهية.

المرحلة الرابعة : التحول البيئي: قال تعالى:﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سبأ:16)، تحوّلت الأرض من خصبٍ إلى جدب، ومن تنوع زراعي إلى نباتات برية شحيحة، في تصوير بلاغي لانحدار مستوى المعيشة ومقومات الحياة.

المرحلة الخامسة : الشتات والتاريخ: قال تعالى:﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ:19) ختمت القصة بمصير جماعي: أن هؤلاء القوم الذين كانوا حضارة مزدهرة، لم يبقَ منهم سوى أحاديث يتناقلها الناس، وأمة ممزقة في الأرض، وهي نهاية تؤكد أن الترف إذا لم يُصن بالشكر، ينقلب إلى لعنة.

وهكذا، تتدرج القصة في سورة سبأ من قمة الرخاء إلى قاع الشتات، في مشهد لا يركز على أسماء الشخصيات ولا تواريخ الوقائع، بل على سُنّة قرآنية متكررة: النعمة مقرونة بالشكر، والإعراض مقرون بالعقوبة.

وتعد هذه القصة – ببنيتها المركزة – من أبلغ النماذج القرآنية التي ترصد العلاقة بين البيئة العمرانية والسلوك الجمعي.

الخاتمة:

وفي ضوء ما سبق عرضه وتحليله، خلصت الباحثة إلى مجموعة من النتائج التي تعكس الأبعاد العمرانية والدلالات النفسية والاجتماعية لمدينة سبأ في ضوء التفسير القرآني، وهي كالآتي:

1. إنّ القرآن الكريم يعرض الحضارات السابقة بوصفها نماذج حضارية ذات دلالات عقدية ونفسية واجتماعية، لا مجرد وقائع تاريخية.

2. كشف التحليل التفسيري لآيات سبأ عن ملامح بيئة عمرانية مستقرة، قامت على حسن استثمار الموارد، والتنظيم العمراني، وتحقيق التوازن بين الإنسان والبيئة.

3. إنّ الأمن والرخاء والترابط الاجتماعي في مدينة سبأ كان نتيجة مباشرة لانسجام البناء المادي مع القيم الإيمانية.

4. إنّ الانحراف العقدي والسلوكي أسهم في انهيار الحضارة السبئية، وفق السنن الإلهية الحاكمة لعمران الأرض.

5. إنّ العمران في التصور القرآني مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقيم الأخلاقية والإيمانية، وأن فقدانها يؤدي إلى زوال الاستقرار الحضاري.

6. إنّ دراسة مدينة سبأ تفسيرياً تسهم في إبراز البعد الحضاري للخطاب القرآني، وتقدّم رؤية متكاملة تجمع بين البعد المادي والمعنوي للعمران.

7. فتح آفاق لدراسات مستقبلية تُعنى بتطبيق السنن القرآنية في فهم قضايا العمران المعاصر ودلالاته النفسية والاجتماعية.

وفي الختام، فإن ما وُفِّقتُ إليه في هذا البحث فمن الله تعالى وحده، وما كان فيه من نقص أو خطأ فمن نفسي والشيطان.

المصادر

هي بعد القرآن الكريم:

1. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط:2، ١٩٩٥ م.

2. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، ، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط:2، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

3. الخالدي، صلاح ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، دار القلم –دمشق ، دار الشامية–بيروت ، ط:1 ، 1419هـ–1998م.

4. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (٣٩٥هـ) ، معجم مقاييس اللغة، ، تح: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، (د.ط).

5. الجوهري، إسماعيل بن حماد ، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ، ، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين. بيروت– لبنان، ط:4 ، 1990م.

6. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (٧١١هـ)، لسان العرب ، دار صادر–بيروت ، ط:3 ،1414هـ.

7. النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، مطبعة السنة المحمدية–ملتقى أهل الأثر، (د.ط)، 1374هـ–1955م.

8. مجيد طراد، ديوان كثير عزة، دار الكتاب العربي ، ط:4 ، 1413هـ–1993م.

9. طقوش، محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس ، ط:1، 1430هـ–2009م.

10. جواد علي (١٤٠٨هـ)، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط:4، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

11. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن ، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط:2، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

12. مجلة الخليج للتاريخ والآثار، تصدر عن جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، العدد :15، السنة (2020م).

13. العريقي، منير عبد الجليل ، الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم، مكتبة مدبولي– القاهرة، ط:1، 2002م.

14. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (٢٢٤ – ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار التربية والتراث – مكة المكرمة ، (د.ط)، (د.ت).

15. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

16. محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط:1، (د.ت).

17. الشهراني، خالد بن محمد بن صالح ، الهدايات القرآنية في قصة سبأ – دراسة موضوعية، مجلة الأزهر، فرع الزقازيق، المجلد:35، العدد:2، إبريل–2023م.

18. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط:1، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م.

References
the Holy Qur'an

1. Ibn Ashur, Muhammad al-Tahir ibn Muhammad al-Tahir al-Tunisi (d. 1393 AH).Al-Tahrir wa al-Tanwir. Tunis: Tunisian Publishing House, 1984.
2. Ibn Faris, Ahmad ibn Faris ibn Zakariya al-Qawwini al-Razi (d. 395 AH). Maqayis al-Lughah. Edited by Abd al-Salam Muhammad Harun. Beirut: Dar al-Fikr, 1979.
3. Ibn Kathir, Ismail ibn Umar al-Qurashi al-Dimashqi (d. 774 AH). Tafsir al-Quran al-Azim. Edited by Sami ibn Muhammad Salama.KRiyadh: Dar Tayyibah for Publishing and Distribution, 2nd ed., 1999.
4. Ibn Manzur, Muhammad ibn Mukarram al-Ansari al-Ifriqi (d. 711 AH).
   Lisan al-Arab. Beirut: Dar Sader, 3rd ed., 1414 AH.
5. Al-Jawhari, Ismail ibn Hammad.Al-Sihah: Taj al-Lughah wa Sihah al-Arabiyyah. Edited by Ahmad Abd al-Ghafur Attar. Beirut: Dar al-Ilm lil-Malayin, 4th ed., 1990.
6. Jawad Ali (d. 1408 AH).Al-Mufassal fi Tarikh al-Arab Qabl al-Islam. Beirut: Dar al-Saqi, 4th ed., 2001.
7. Al-Hamawi, Yaqut ibn Abd Allah al-Rumi (d. 626 AH).Mujam al-Buldan. Beirut: Dar Sader, 2nd ed., 1995.

8. Al-Khalidi, Salah.Quranic Narratives: Presentation of Events and Analysis. Damascus: Dar al-Qalam; Beirut: Dar al-Shamiyyah, 1st ed., 1998.
9. Al-Saadi, Abd al-Rahman ibn Nasir ibn Abd Allah (d. 1376 AH). Taysir al-Karim al-Rahman fi Tafsir Kalam al-Mannan. Edited by Abd al-Rahman ibn Mualla al-Luwayhiq. Beirut: Al-Risalah Foundation, 1st ed., 2000.
10. Al-Tabari, Muhammad ibn Jarir (224–310 AH).Jami al-Bayan an Ta'wil Ay al-Quran. Mecca: Dar al-Tarbiyah wa al-Turath, n.d.
11. Al-Qurtubi, Muhammad ibn Ahmad al-Ansari (d. 671 AH).Al-Jami li-Ahkam al-Quran. Edited by Ahmad al-Barduni and Ibrahim Atfish. Cairo: Dar al-Kutub al-Misriyah, 2nd ed., 1964.
12. Al-Shahrani, Khalid ibn Muhammad ibn Salih."Quranic Guidance in the Story of Saba: A Thematic Study." Al-Azhar Journal, Zagazig Branch, Vol. 35, No. 2, April 2023.
13. Tqush, Muhammad Suhail.History of the Arabs before Islam. Beirut: Dar al-Nafais, 1st ed., 2009.
14. Tantawi, Muhammad Sayyid.Al-Tafsir al-Wasit of the Holy Quran. Cairo: Dar Nahdat Misr for Printing, Publishing and Distribution, n.d.
15. Al-Ariqi, Munir Abd al-Jalil.Architectural Art and Religious Thought in Ancient Yemen. Cairo: Maktabat Madbuli, 1st ed., 2002.
16. Al-Nisaburi (Al-Maydani), Ahmad ibn Muhammad ibn Ibrahim (d. 518 AH).Majma al-Amthal. Cairo: Al-Sunnah al-Muhammadiyyah Press, n.d., 1955.
17. Tarrad, Majid.The Diwan of Kathir Azzah. Beirut: Dar al-Kitab al-Arabi, 4th ed., 1993.
18. Journal of Gulf History and Archaeology.Published by the Gulf Cooperation Council Society for History and Archaeology, Issue No. 15, 2020.